﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر: 60]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

أهمّيَّةُ الدُّعاء والطّاعة في سبيلِ الخلاص

لمّا بيّن الله تعالى أنّ القول بالقيامةِ حقٌّ وصدق، وكان من المعلوم بالضَّرورة أنّ الإنسان لا ينتفع يومَ القيامة إلّا بطاعة الله تعالى، فكان الاشتغال بالطّاعة من أهمّ المهمات، ولمّا كان أشرفُ أنواع الطّاعات الدّعاءَ والتَّضرُّعَ؛ أمَرَ الله تعالى به في هذه الآية فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ﴾[1]، وبيّن أنّه سبيلُ الخلاص فقال: ﴿أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾، فجاءتِ الآيةُ تحذيرًا من الإشراكِ به[2].

إفرادُ الله تعالى بالعبادةِ والدُّعاءِ سبيلُ النَّجاة

ولمّا كان البعثُ قضاءً منه تعالى بين عباده بالعدل؛ فيَدخُلُ المحسنُ الجنَّةَ نصرةً له، والمسيءُ النّارَ خِذلانًا وإهانةً له كان مناسبًا أن يُردَفَ بتنبيهِ عبادِهِ كلِّهم إلى وجوبِ الإيمان له؛ ليُسلِّمَهم من غوائلِ تلك الدّار، وذلك بأنْ يدعوه وحده، ويعبُدوه وحده[3].

ذكرُ الدُّعاء بالمعنيين استكمالٌ لإفرادِهما في آياتٍ أُخَرَ

وبينَ هذه الآيةِ المباركة وما قبلَها من الآياتِ وجهُ مناسبةٍ؛ فلمّا تقدَّمَ ذكرُ الدّعاء بمعنييه: معنى العبادةِ، ومعنى سؤالِ المطلوبِ في قوله تعالى:﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾ [غافر: 12]، وقولِه: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [غافر: 13]، وقولِه: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٥٠﴾ [غافر: 50] أردَفَ بهذا الأمرِ الجامعِ لكلا المعنيَين[4].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 527.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 181.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 98.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 181.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱدْعُونِيٓ﴾: جذرُ الكلمة هو (دعو)؛ والدّعاء: الرَّغبةُ إلى اللّه ﷻ[1] فيما عنده من الخير والابتهال إليه بالسُّؤال[2]. وفي معنى الدُّعاء هنا قولان؛ أحدُهما: الدّعاءُ بمعنى العبادة - وهو المرادُ في هذه الآية - والثّاني: أنَّه بمعنى الاستغاثةِ والسّؤال والطَّلب[3]. ويجوزُ أن يصلحَ معنى الدُّعاء في هذه الآية لِما يلائمُ المعنيَين[4].

2) ﴿دَاخِرِينَ﴾: جذر الكلمة هو (دخر)؛ قال تعالى: ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النّحل: 48]؛ أي: أذِلّاءُ مُهانون، والدّاخِرُ: الصّاغرُ المُنْقاد. وهو أن يفعلَ ما تأمره كرهًا على صِغَرٍ ودُخور[5]. يقال: أدْخَرتُهُ فَدَخَرَ؛ أي: أذلَلْتُهُ فذَلَّ، وعلى هذا المعنى قولُه في هذه الآية: ﴿دَاخِرِينَ﴾[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التّضرُّع إلى اللّه بالدُّعاءِ عبادةٌ، ووعدُ اللّه بالإجابة، وللمستكبرِ سوءُ العاقبة

في هذه الآيةِ تَفَضُّلٌ ونعمةٌ ووَعْدٌ لأمَّةِ سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ بالإجابة عند الدّعاء[7]. ونَعْيٌ من اللّه تعالى على الإنسان لِما هو فيه من جُحودٍ ونكران لنِعَمِ خالقه سبحانه؛ إذ أمر اللّه تعالى عباده المؤمنين أن يكثروا من التّضرّع إليه بالدّعاء فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؛ أي: وقال ربكم: أيُّها المؤمنون، تضرّعوا إليّ بالدّعاء، وتقرّبوا إليّ بالطّاعات أستَجِبْ لكُم، ولا أُخَيِّبْ لكم رجاءً.

ولا تَنافيَ بين تفسير الدّعاء هنا بالسّؤال والتّضرُّع إلى اللّه تعالى وبين تفسيره بالعبادة؛ لأنَّ الدّعاءَ هو لونٌ من العبادة، بل هو العبادةُ نفسُها كما جاء في الحديث الشّريف.

---

(1) ابن سيدة، المُحكم: (دعو).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (دعو).
(3) السيوطيّ، معترك الأقران: 2/ 383.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 181.
(5) الخليل، العين، والزّمخشري، أساس البلاغة، والراغب، المفردات، وابن الأثير، النهاية: (دخر).
(6) الراغب، المفردات: (دخر).
(7) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 4/ 566.

ثمَّ بيَّنَ سبحانه سوءَ عاقبة الَّذين يتكبَّرون عن طاعة الله وعن دعائه فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾؛ أي: إنَّ الَّذين يستكبرون عن طاعتي، وعن التّقرب إليّ بما يرضيني سنُدخِلُهم يومَ القيامة نارَ جهنَّمَ حالةَ كونهم أذِلّاءَ صاغرين، فقولُه: ﴿دَاخِرِينَ﴾؛ أي: أذلّاءَ مُهانين[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَقَالَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تحذيرًا من الإشراك به، والوصلُ بين الجملتين لسبب أنّهما خبريّتان مع وجود العلاقة الَّتي تبرِّرُ عطفَ الثّانية منهما على الأولى؛ وهي ارتباطُ الجملتين من حيث المعنى؛ فإنَّ الجملةَ الأولى أثبتت حقيقةَ يوم البعثِ وتحقُّقَ وقوعِهِ حيث يُصارُ إلى جنَّةٍ أو إلى نارٍ، والجملةُ الثّانيةُ إرشادٌ لعباد الله إلى الوسيلة للسَّعادةِ الأُخرويَّةِ في دار الخلود، وهي إفراد الله تعالى بالعبادة[2].

إفـــرادُ الـلـه بـالـعـبـادةِ والـدُّعـاءِ هو مَنْجاةُ الإنسانِ حـــينَ قـيـامِ السّاعة

معنى (القولِ) ونكتةُ الإتيانِ به ماضيًا:

القولُ المُخبَرُ عنه بفعل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾ يجوز أن يُرادَ به ما تعلَّقتْ به إرادةُ الله تعلُّقًا صلاحيًّا؛ بأنْ يقوله عندَ إرادة تكوينه، ويجوزُ أن يرادَ القولُ اللَّفظيُّ، ويكون التّعبير بـ (قال) الماضي مُخبرًا عن أقوالٍ مَضَتْ في آياتٍ قبل نزول هذه الآية، مثل قوله: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: 14]، ويجوزُ أن يكونَ الماضي مُستعمَلًا في الحال مجازًا؛ أي: يقولُ ربُّكم: ادعوني[3].

معنى القولِ دائرٌ بينَ الإرادةِ وبينَ القولِ اللَّفظيِّ في الماضي أو في الحال

(1) طنطاويّ، الوسيط: 1/ 3712 - 3713.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 571.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 181.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ الرُّبوبيَّة، وإضافتِها إلى ضمير المخاطب:

أمْرُ الله لعباده مِـن مُـنـطـلَـقِ رُبوبيَّتِهِ ورحمتِه

قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾ دالٌّ على لطفِ الله تعالى بعباده، ونعمته العظيمة، حيث دعاهم إلى ما فيه صلاحُ دينهم ودُنياهم[1]. "وتعريفُ الله بوصف الرَّبِّ مضافًا إلى ضمير المخاطبين في قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾؛ لِما في هذا الوصفِ وإضافته من الإيماء إلى وجوبِ امتثال أمره؛ لأنّ مِن حقِّ الرّبوبيِّة امتثالَ ما يأمرُ به موصوفُها؛ لأنَّ المربوبَ محقوقٌ بالطّاعة لربِّه، ولهذا لم يُعَرِّجْ مع هذا الوصف على تذكيرٍ بنعمته، ولا إشارةٍ إلى كمالاتِ ذاته"[2].

دلالةُ الأمرِ في قوله: ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾:

الإرشـادُ والـتَّـشـويـقُ؛ أمّـا الإرشـادُ فـلِـلـدُّعـاءِ، وأمّـا التَّشويقُ فلِلاستجابة

الدُّعاءُ في قوله: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ دعاءٌ بمعنى العبادة، وهو كثيرٌ في القرآن[3]، وجاءَ مفرَّعًا عن توبيخِ المشركين بقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ [غافر: 12]، وعلى قوله عقب ذلك: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [غافر: 13][4]، وقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وجاء بصيغةِ الأمر ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾، وقد خرَجَ هُنا إلى معنًى مجازيٍّ هو الإرشاد؛ إذ أرشَدَ إلى أنّه قريبٌ منّا، يسمعُ دعاءَنا[5]. كما أنّ فيه معنى التّشويق إلى كلِّ خير يمكن أن يصيبَ الإنسانَ وهو يدعو ربَّهُ بعدَ أنْ أشار إليه بالاستجابة إلى دعائه وترغيبه بذلك. فالدّعاءُ هنا هو الطّلبُ والرَّغبةُ، وهذا وعدٌ مقيَّدٌ بالمشيئة، وهي موافقةُ القدرِ لمن أراد أنْ يستجيبَ له[6].

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرحمن: 1/ 740.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 182.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 179.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 181.
(5) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 247.
(6) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 234.

دلالةُ فعلِ الدُّعاءِ بينَ الحقيقةِ والكنايةِ والمجاز:

الدُّعاءُ والعبادةُ مُتَّحِدانِ في الحقيقة

يُطلَقُ الدُّعاءُ بمعنى النِّداءِ المُستلزِمِ للاعترافِ بالمنادى، ويُطلق على الطَّلبِ، وقد جاء من كلام النّبيّ ﷺ ما فيه صلاحيةُ معنى الدُّعاءِ الَّذي في هذه الآيةِ لِما يلائم المعنَيَين. ففي الحديث الصّحيح الَّذي رواه النُّعمانُ بنُ بَشيرٍ رضي الله عنه، قالَ: سَمِعْتُ النَّبيَّ ﷺ يَقولُ: «إنَّ الدّعاء هوَ العِبادَةُ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾[1]. وما في الحديثِ من توكيدٍ يقتضي اتِّحاد الحقيقتينِ؛ فإذا كان الدّعاءُ هو العبادةَ كانت العبادة هي الدّعاءَ لا محالة[2]. والدّعاءُ يطلق على سؤالِ العبد من الله حاجتَهُ، وهو ظاهرُ معناه في اللّغة. وهو اعترافٌ بالعبوديَّة والذِّلَّة والمسكنة، فكأنَّه قيل: إنَّ تارك الدّعاءِ إنَّما تركه لأجل أن يستكبرَ عن إظهار العبوديَّة[3].

العبادةُ دعاءٌ للمعبودِ بنداءِ تعظيمِهِ والتَّضرُّعِ إليه

ويُطلَقُ على عبادة الله على طريقِ الكناية؛ لأنّ العبادةَ لا تخلو من دعاء المعبود بنداء تعظيمه والتّضرّع إليه، وهذا إطلاقٌ أقلُّ شيوعًا من الأوَّل، ويراد بالعبادة في اصطلاح القرآن إفرادُ الله بالعبادة؛ أي: الاعترافُ بوحدانيّته[4].

الدُّعاءُ سببُ العبادة

أمّا المجازُ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ فهو مجازٌ مرسل علاقتُهُ السَّببيَّة؛ لأنّ الدّعاء سببُ العبادة[5]، بقرينة قولِهِ بعد ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، ويؤيِّدُ هذا المجازَ حديثُ النُّعمانِ بن بشير الَّذي ذكرناه آنفًا، أو علاقتُهُ الخصوصُ والعموم؛ فإطلاقُ العبادةِ على الدُّعاءِ من إطلاق العامِّ على الخاصِّ مجازًا[6].

(1) الحاكم، المستدرك على الصّحيحين، باب: (إنّ الدّعاء هو العبادة)، رقم الحديث: (1853): 1/ 672.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 181 - 182.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 527.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 182.
(5) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 24/ 265.
(6) الخلوتي، روح البيان: 8/ 152.

علَّةُ إيثارِ لفظِ الدُّعاء دونَ العبادة:

الـدّعـاءُ صـورةٌ مِن صوَرِ العبادةِ أو جزءٌ منها

حقيقةُ الدُّعاء: إظهارُ الافتقار لله تعالى، واستشعارُ الذِّلَّةِ إليه سبحانه، فضلًا عن أنّ فيه معنى الثّناءِ على الله، واعترافِ العبد بخطاياه وتقصيراته تجاهَ خالقه ومولاه، والافتقارِ إليه أمام جودِ وكرم ربِّه سبحانه. يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186].

وظاهرُ عبارةِ الحديثِ الشَّريفِ (إنَّ الدُّعاءَ هو العبادةُ) أنَّ العبادةَ والدُّعاءَ شيءٌ واحدٌ، بيد أنّ ثمَّةَ فرقًا بينهما؛ هو أنّ الدّعاء إمّا أن يكونَ صورةً من صور العبادة - وحينئذٍ يكونُ بينَهما علاقةٌ بمثابةِ العلاقةِ بين الخاصِّ والعامّ - وإمّا أن يكونَ جزءًا منها، فتكونُ العلاقة بينهما كعلاقة الجزءِ من الكلّ. أمّا العباداتُ فمُتضمَّنةٌ في تشريعاتٍ محدّدةٍ لا يجوزُ تجاوُزُها.

وأوثِرَ في الآيةِ الشَّريفةِ لفظُ الدُّعاء دون العبادة؛ لأنَّ الدُّعاءَ هو الأُسُّ الَّذي تقومُ عليه العبادة، وللعلّامةِ ابنِ منظورٍ صاحبِ لسان العرب كلامٌ بديعٌ في هذا الشَّأن، قال رحمه الله: "وفي الحديثِ: «الدُّعاءُ مُخُّ العبادة»[1]؛ مخُّ الشَّيءِ: خالِصُهُ، وإنَّما كان مُخًّا لأمرين؛ أحدُهما: أنَّه امتثالُ أمرِ الله تعالى حيث قال: ﴿ٱدْعُونِيٓ﴾، فهو مَحْضُ العبادةِ وخالِصُها. الثّاني: أنَّه إذا رَأى نجاحَ الأمور من الله قطَعَ أملَهُ عن سِواه، ودَعاهُ لحاجتِهِ وحدَهُ، وهذا هو أصلُ العبادة، ولأنَّ الغرضَ من العبادةِ الثَّوابُ عليها وهو المطلوبُ بالدُّعاء"[2]. فإيثارُ الدُّعاء على العبادةِ في الآيةِ الشَّريفة مِن إيثار الخاصِّ على العامِّ لشَرَفِهِ.

(1) الترمذي، سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب فضل الدعاء، رقم الحديث: (3371)، وإسناده فيه ضعف.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (مخخ).

المُشاكَلةُ في جُملةِ الدُّعاء:

إجابةُ الدُّعاءِ إثابةٌ

المُشاكَلةُ: ذكْرُ الشّيءِ بلفظِ غيره؛ لوقوعِه في صحبته تحقيقًا أو تقديرًا[1]. وفي قوله تعالى: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ مُشاكَلةٌ؛ لأنَّ الإثابةَ مترتِّبةٌ عليها[2].

الموقعُ النَّحْويُّ لقوله: ﴿أَسْتَجِبْ﴾:

ترتُّبُ الاستجابةِ على الدُّعاء يُعلِّمُنا الأخذَ بالأسبابِ في كلِّ شُؤونِنا

قولُهُ سبحانه: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ مضارعٌ مجزومٌ بالطَّلب ﴿ٱدْعُونِيٓ﴾، و﴿لَكُمْ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿أَسْتَجِبْ﴾. وجملةُ ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ لا محلَّ لها جوابُ شرطٍ مقدَّرٍ غيرُ مقترنٍ بالفاء؛ أي: إنْ تدعوني أستجبْ لكم[3].

بلاغةُ الاحتباكِ في قولِهِ: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ﴾:

أخْصَرُ طريقٍ لنَيْلِ ثوابِ الله هو الدُّعاء

جَمَعتِ الآيةُ بين فِعلَيِ الدُّعاء والاستجابة على تفاوُتٍ بينَ شيوع الإطلاق في كليهما، فيكونُ في المعنى المرادِ ما يشبه الاحتباكَ، حيث صرَّحَ بالمعنى المشهور في كلا الفعلين، ثمَّ ذكَرَ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ قرينة دالَّةً على ذلك، فاتَّضَحَ أنَّ المراد هو الدُّعاء والعبادة، وأنّ الاستجابة أُريد بها قبولُ الدّعاء وحصولُ أثر العبادة، قال الزَّمخشريُّ: "الاستجابةُ هي الإثابة"[4]. ففعلُ ﴿ٱدْعُونِيٓ﴾ مستعملٌ في معنَيَيهِ بطريقةِ عموم المُشترَك، وفعلُ ﴿أَسْتَجِبْ﴾ مستعملٌ في حقيقتِهِ ومجازِهِ، وذلك من الإيجازِ والكلام الجامع[5].

نكتةُ دخولِ السّينِ والتّاء على فعلِ الاستجابة:

استجابةُ الباري عظيمةٌ لمَن يدعوه مُخلِصًا

وَرَدتِ الإجابةُ في قوله: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ مزيدةً بالسّين والتّاء؛ للدَّلالة على زيادةِ معنى الاستجابة، فالقاعدةُ تقول: (زيادةُ

(1) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 327.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 24/ 265.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 24/ 265.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 179.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 182.

المبنى تدلُّ على زيادة المعنى)؛ فدخولُ حروف الزّيادة على الكلمة تدلُّ على قوَّةِ الكلمةِ ومدلولِها العميق، حيث إنَّها تدلُّ على المعنى الأصليِّ للكلمةِ وعلى معنًى زائدٍ عليه، والمعنى الزّائد هنا هو تعظيمُ أمرِ الدُّعاء؛ "أي: أوجِدُ الإجابةَ إيجادًا عظيمًا، كأنَّه مِمَّن يطلُبُ ذلك بغايةِ الرَّغبةِ فيه"[1].

دلالةُ فعلِ الاستجابةِ بينَ الحقيقة والمجاز:

قَـبـولُ الـدُّعـاءِ والإثابةُ عليه

معنى قوله: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾: أُثِبْكُم[2]. والاستجابةُ "تطلق على إعطاء المسؤول لمن سأله، وهو أشهرُ إطلاقِها، وتطلق على أثرِ قبول العبادة؛ بمغفرةِ الشّرك السّابق وبحصول الثّواب على أعمال الإيمان؛ فإفادةُ الآيةِ على معنى طلبِ الحاجة من الله يناسبُ ترتُّبَ الاستجابةِ على ذلك الطّلب معلَّقًا على مشيئة الله أو على استيفاءِ شروط قبول الطّلب، وإعطاءِ خيرٍ منه في الدّنيا، أو إعطاءِ عِوَضٍ منه في الآخرة. وإفادتُها على معنى إفراد الله بالعبادة؛ أي: بأن يتوبوا عن الشّرك، فَتَرتُّبُ الاستجابة هو قبولُ ذلك، فإنَّ قبول التّوبةِ من الشّرك مقطوعٌ به"[3].

الاستجابةُ إثابةٌ لِمَـن يـعـبـدُ الله تعالى ولا يَدعو سِواه

وقولُهُ سبحانه: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ بمعنى: أنّه سبحانه قريبٌ مِن عباده الصّالحين الَّذين يؤمنون به ويدعونه ويرجونه، فدعاؤهم عبادةٌ له سبحانه، فهو يتقبَّلُ منهم أعمالَهم.

و كلمةُ ﴿أَسْتَجِبْ﴾ يمكنُ أن تُفهَمَ على الحقيقةِ، وهي تقبُّلُ الدُّعاءِ وتحقيقُ ما يشاء الله تعالى منه، أو يمكن أن تكونَ بمعنى الإثابةِ على العباداتِ والطّاعاتِ على سبيل المجازِ المرسَلِ بعلاقةِ السَّببيَّة.

معنى اللّامِ في ﴿لَكُمْ﴾:

مَـن دَعـا الـلـه مُخلِصًا استحقَّ الإجابة

معنى اللّام في قوله: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ الاختصاصُ والاستحقاق،

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 99.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 61.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 182.

فمَن دعا الله تعالى مؤمِنًا به سبحانه وفْقَ أخلاقِ الدُّعاءِ وشروطِه استحقَّ القبول والإجابة بإذن الله.

نكتةُ حذفِ معمولِ الاستجابة:

في قولِهِ سبحانه: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ حُذِفَ معمولُ ﴿أَسْتَجِبْ﴾، والتَّقدير: (أستجبْ لكم دعاءَكم)، وفي هذا الحذفِ دليلٌ على المعنى المجازيِّ المرادِ بالاستجابة وهو الإثابة؛ لأنَّ المعنى: (أُثِبْكُم)، كما أنَّ الحذف دليلُ العموم، فكأنَّ المعنى: أستجبْ لكم كلَّ أدعيتِكم.

تضمُّنُ الاستجابةِ معنى الإثابة

دلالةُ استعمالِ أُسلوبِ الطَّلبِ دون أُسلوبِ الشَّرط:

ورَدَ قولُهُ تعالى: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ بأسلوب الطَّلب، ومعناه الشَّرطُ؛ لأنَّ التَّقديرَ: (إنْ تدعوني أستجبْ لكم)، إلّا أنَّ النَّظم القرآنيَّ آثر أسلوبَ الطَّلب على أسلوب الشَّرطِ لاعتباراتٍ مهمَّةٍ، منها: الحثُّ على الدُّعاء والتَّرغيبُ فيه، فقوله: ﴿ٱدْعُونِيٓ﴾ إرشادٌ لعبادِ الله إلى ما فيه مصلحتُهم في الدُّنيا والآخرة، ولو قال: (إنْ تدعوني أستجبْ) لفاتَ هذا المعنى المراد. ومنها: الدَّلالةُ على سرعةِ تحقُّقِ الإجابة؛ فالطَّلبُ أخصرُ من الشَّرط وأسرعُ في التَّلفُّظِ به، وهذا دليلُ السُّرعةِ في تحقُّقِ المدعوِّ به، حيث قال: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ﴾، وليس هناك أسلوبٌ أخصرُ من هذا يدلُّ على كمالِ المعنى المرادِ وتمامِه، وهذا من بديع النَّظم القرآنيّ.

إجابةُ اللهِ لعبادِهِ فوريَّةٌ، لكنْ قد يُؤخِّرُها لحكمةٍ يعلمُها سبحانه

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾:

جملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾ لا محلَّ لها؛ لأنَّها استئنافٌ بيانيٌّ، أو تعليلٌ للأمرِ بالدّعاء في قوله: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ بتضمينِ الدُّعاءِ معنى العبادة، وهي تفيدُ التَّحذيرَ من الإعراض عن دعاء الله حين الإقبال على دعاء الأصنام أو غيرِها من الخلق، وقد فُصِلَتْ هذه الجملةُ عن سابقتِها؛ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصال بينهما.

الأمرُ بالدُّعاء والتَّحذيرُ من الاستكبار عن عبادة الله

فائدةُ تتابعِ المؤكِّداتِ في صدرِ الجملة:

أفادَ تتابُعُ المُؤكِّدَين: ﴿إِنَّ﴾ و(الجملةِ الاسميَّةِ) في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾؛ بيانَ قدرةِ الله تعالى في إذلالِ الجبابرة، وإدخالِهم النّارَ أذلَّةً مهما كانت أعدادُهم؛ لأنَّهم أكثرُ النّاس؛ إذ سبَقَ قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

التَّأكيدُ على قدرة الله في إذلالِ الجبابرةِ وعقوبتهم

غرضُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته:

في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾؛ عُبِّرَ بالموصولِ إيماءً إلى التَّعليل[1]. وقد يكون لإرادةِ العموم، نحو قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [فصّلت: 30]، وقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: 69][2]؛ إذ أرادَ عمومَ الَّذين أشركوا واستكبروا عن عبادة الله تعالى.

جميعُ المستكبرينَ في جهنَّمَ داخرين

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارع ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾:

صيغةُ المضارَعةِ في قولِه: ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ تدلُّ على التّجدُّدِ، وتجدُّدُ الاستكبارِ دالٌّ على الإصرارِ والتَّعنُّتِ وعدمِ قبول الاستجابة لله بالإيمان به ودعائِه والرّجاءِ منه أن يغفرَ ذنوبَهم وعبادتِه سبحانه.

الإصرارُ على الاستكبار مِن صفاتِ الأشرار

نكتةُ دخولِ السّين والتّاء على فعل الاستكبار:

دخلتِ السّينُ والتّاء في قوله: ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾؛ للدَّلالة على طلبِ الاستكبار والرَّغبة في تجسيدِه سلوكًا لا ينفكّون عنه؛ "أي: يوجِدون الكبرَ"[3]. وفي ذلك دلالةٌ على المبالغةِ في الكبر، قال تعالى: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ [غافر: 56].

النّارُ مصيرُ المُبالِغين في الاستكبار

نكتةُ تعديةِ فعل الاستكبار بـ﴿عَنۡ﴾:

عُدّيَ فعلُ الاستكبار في قوله: ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾ بـ﴿عَنۡ﴾

غايةُ الذِّلَّةِ والمَهانةِ عبادةُ غيرِ الله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 183.
(2) السيوطيّ، الإتقان: 4/ 1286.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 99.

دون (على) لنكتةٍ بلاغيَّةٍ مُفادُها: أنّ ﴿عَنْ﴾ تفيد المُجاوزة، في حين تفيدُ (على) الاستعلاء، فمهما بلغ النّاسُ من الكبر فإنَّهم لن يبلغوا الاستعلاءَ على الله، وإنّما هو مجاوزةُ ما أمَرَ الله به، فهذا هو الاستكبارُ الَّذي بَلَغَهُ المُعارِضون تجاهَ الله وعبادته ودعائه سبحانه، إلى عبادةِ غيره ودعائهم. فهم قد تجاوزوا عبادةَ الله ودعاءه إلى عبادة غير الله ودعائهم، وهذا يجعلُهم في غاية الذِّلَّةِ والمَهانة.

نكتةُ إضافةِ العبادةِ إلى ضميرِ العظمة:

في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ أضافَ العبادةَ إلى ضمير العظمة، ونكتةُ ذلك تخصيصُ العبادة به تعالى، فضلًا عن كونه استمرارًا لأمرِ الدّعاء قبله؛ إذ قال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، فأتبَعَهُ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ على الطَّريقة نفسِها، وما ذاك إلّا لأنّ الدّعاءَ هو العبادة، وذلك كما ورد في الحديث، فدلَّتْ على أنّ الَّذين يدعون اللّهَ هم الَّذين يعبدونه ﷺ.

اللهُ تعالى وحده هو المخصوصُ بالعبادةِ المُستحِقُّ لها

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾:

جملةُ ﴿سَيَدْخُلُونَ﴾ في محلِّ رفعٍ، خبرُ ﴿إِنَّ﴾[1]، فتأكَّدَ دخولُ هؤلاءِ نارَ جهنَّمَ أذِلّاءَ مُرغَمين.

تأكيدُ دخولِ هؤلاءِ المستكبرين نارَ جهنَّم

معنى السّينِ في ﴿سَيَدْخُلُونَ﴾:

دلَّت السّينُ في قولِه: ﴿سَيَدْخُلُونَ﴾ على الاستقبال؛ وذلك يومَ القيامة، ومعناها التَّهديدُ والوعيدُ الشَّديدُ مِن الله لكلِّ مَن يتكبَّرُ عن عبادته سبحانه، واستعمَلَ النَّظمُ الحكيمُ السّينَ الدّالَّةَ على المستقبل القريبِ إشارةً إلى قُربِ ذلك اليوم وقرب دُخولِهم النّار.

يومُ القيامةِ موعدُ القصاصِ مِن المستكبرين

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في ﴿سَيَدْخُلُونَ﴾:

قَرَأ ابنُ كثيرٍ وأبو بكرٍ بخلفه أبو جعفر ورويس: ﴿سَيُدْخَلُونَ﴾

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 24/ 265.

بضَمِّ الياءِ التَّحتيَّةِ المُثنّاةِ وفتحِ الخاءِ المعجمة على ما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ أي: سيُدخِلُهم ملائكة العذاب جهنَّمَ، ويكونُ بعدَها في ﴿دَاخِرِينَ﴾ التِفاتٌ من المجهول إلى المعلوم.

سيدخلُ المستكبرون جهنَّمَ رَغْمًا عنهم مُهانينَ مُنقادينَ بأرجُلِهم

وقرَأَ الباقونَ بفتح الياء وضمِّ الخاء إضمارًا عنهم[1]، فهم سيدخلون جهنّم رَغمًا عنهم، منقادين بأرجلِهم الَّتي ستشهد عليهم؛ لأنّهم استحقّوا ذلك بسبب تعنّتهم وإصرارهم على الكفر وعدم الإيمان.

نكتةُ العدول عن ذكر النّار إلى ﴿جَهَنَّمَ﴾:

اختيارُ لفظ (جهنَّم) في الآية لتهويلِ عذاب الآخرة

عدلَ عن ذكر النّار في الآية إلى ذكر ﴿جَهَنَّمَ﴾؛ وذلك لِما في اسم جهنَّمَ من القوّة والشّدّة، وهو ما يدلّ على التّنكيل بهم، وأنّهم يستحقّون أكثر من النّار، فكانت جهنّم هي مُدخَلَهم، وفي ذلك تخويفٌ وتهويلٌ لمآلِ هؤلاء. هذا فضلًا عن أنّ النّار ذكرت في القرآن الكريم مرّاتٍ عديدةً للدّلالة على نار الدّنيا والانتفاع بها كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١﴾ [الواقعة: 71]، أمّا لفظُ (جهنَّم) في القرآن الكريم فلم يَرِدْ إلّا للدّلالة على عذاب الآخرة؛ إذ اختصَّ لفظ (جهنَّم) بالتّعبير عن نار الآخرة ووصف عذاب يوم القيامة حصرًا، فلم يَرِدْ حقيقةً أو مجازًا في التّعبير عن أغراض الدّنيا كما هو وارد في لفظ (النّار).

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿دَاخِرِينَ﴾:

الذِّلّةُ والمهانة في الآخرةِ بسبب الاستكبار في الدُّنيا

نُصِبَ قولُه: ﴿دَاخِرِينَ﴾ على الحال، والمعنى: يكونون حالَ دخولِهم إلى جهنّم أذلّاءَ؛ أي: يدخلون جهنَّمَ على هيئةِ الذُّلِّ والصَّغار والاحتقارِ، وهذا ما استحقّوه في الآخرة؛ لما اتّصفوا به من الكبر في الدّنيا، قال تعالى: ﴿يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾.

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 252، وابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 634، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 183.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿دَاخِرِينَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الصَّغارُ والاحتقارُ من الصّفات الدّائمة لأهل النّار

الدّاخِرُ: الصّاغرُ، وهو أن يفعل ما تأمرُهُ كرهًا على صِغَرٍ ودُخور[1]. ووردت ﴿دَاخِرِينَ﴾ على صيغةِ اسم الفاعل؛ لتدلَّ على الثّبات والاستقرار، فتكونُ صفةُ الصَّغارِ دائمةً فيهم، فهم لا يدخلون جهنَّم فحسب، بل يدخلونها في هيئةِ الصّغار والاحتقار، بسبب استكبارهم في الدّنيا وإعراضهم عن عبادة الله، وتكونُ ملازمةً لهم ثابتةً فيهم أبَدَ الآبِدين.

الطِّباقُ بين ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ و ﴿دَاخِرِينَ﴾:

الإذلالُ والمهانة في النّار على قدر الاستكبار

قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ فيه طباقٌ بين ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ و ﴿دَاخِرِينَ﴾، يَظهَرُ منه انعكاسُ حال الطّغاة المتكبِّرين في الدّنيا وما سيَؤولُ إليه حالُهم من الانقلاب التّامِّ يوم القيامة، فيكونُ إذلالُهم في النّار على قدر استكبارِهم وتعنُّتِهم في الدّنيا.

بلاغةُ الاحتباكِ في الآية:

الكلامُ الموجَزُ الوافي بالمعنى مِن بديعِ النَّظم

في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ احتباكٌ يدلُّ على بديعِ النَّظم القرآنيِّ.

ووجهُ الاحتباكِ: ذكرُ الدُّعاء أوَّلًا دليلًا على حذفه ثانيًا، والعبادة ثانيًا دليلًا على حذفِها أوَّلًا[2]. فكأنّه قال: (وقال ربُّكم ادعوني واعبدوني أستجبْ لكم إنَّ الَّذين يستكبرون عن عبادتي ودعائي سيدخلون جهنَّمَ داخرين)، ويترتَّبُ على هذا الاحتباكِ لفٌّ ونشرٌ معكوس.

(1) الخليل، العين: (دخر).
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 100.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 51 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-97-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 51 : المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-97-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4644027 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»